

هو العليم

هل الغاية تبرر الوسيلة؟

شرح دعاء أبي حمزة الشمالي - سنة ١٤٣٤ هـ ق - المعاشرة الثامنة

محاضرة ألقاها

آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله سره

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَبَنِيهَا أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ

وَعَلَى آلِه الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَاللَّعْنَةُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ

عظم يا سيدي أملني و ساء عملي فأعطي من عفوك بمقدار أملني و لا تؤاخذني بأسوء
عملي؛ فإن كرمك يجعل عن مجازات المذنبين و حلمك يكبر عن مكافات المقصرين.^١

هل "الغاية تبرر الوسيلة"؟

ذكرنا للرققاء في المجالس السابقة بأنَّه لا تجانس بين ذينك الأمرين و هما: الأمل والهدف المتعالي للغاية، والذي هو عبارة عن الورود في حرم القدس الإلهي، والاندراك التام والأتم في الذات اللامتناهية، والتصفية من كافة القذارات الدنيوية ومن الأنانية والاستبداد ورذائل الصفات، والمحو والفناء في ذات الله. فذلك هو أكبر أمل يمكن للإنسان التفكير في الوصول إليه. [هذا هو الأمر الأول]

و أمّا الأمر الآخر فهو الطريق المؤصل إلى هكذا أمل؛ و الذي هو عبارة عن خلوص النية، و اخلاص العمل و صفاء الباطن و محظوظ شعور النفس باستقلاليتها في العمل؛ وهذه أمور لا يمتلكها الإنسان بالطبع؛ فالإنسان غير معصوم عن الخطأ؛ إذ إنَّ العمل الذي يقوم به

^١ فقرة من دعاء أبي حمزة الشمالي الشريف.

الإنسان، قد يكون صائباً، وقد يكون خاطئاً. والعمل الخاطئ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يوصل الإنسان إلى الغاية المرجوة والهدف الصحيح.

إن أولئك القائلين بأن الغاية تبرر الوسيلة، يطرون كلاماً متناقضاً؛ إذ إن الغاية إن كانت طالحة، فالمقدمة الموصلة إليها ستكون مقدمة طالحة أيضاً؛ وإن كانت الغاية غاية صالحة، فكيف يمكن أن تكون المقدمة الموصلة إليها مقدمة طالحة، والسبيل الموصل إليها سبيل خاطئ؟ وهذا هو الفرق بين الحكومة الإلهية وهي تلك الحكومة التي تكون تحت ولاية الإمام المعصوم عليه السلام وبين سائر الحكومات التي شاهدتها في هذا العالم.

فجميع هذه الحكومات تعمل وفقاً لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت تلك الوسيلة؛ فسواء كانت تلك الوسيلة وسيلةً فاسدةً أم وسيلةً صالحةً. فالجرم يعد جرماً عندهم ما لم يكن في إطار الوسائل التي يُراد منها الوصول إلى أهدافهم؛ وإلا فهو يفقد طبيعته كجرم، ويتبَّدَّل بذلك إلى عملٍ حَسَنٍ. والخطأ يكون خطأً فيما لم يكن في إطار الوصول إلى الهدف؛ وإلا لكان عملاً صحيحاً وصائباً! وهذا هو المبدأ الذي ينتهجه السياسيون في هذا العالم؛ فهم يسرون على هذا النهج ويعملون وفقاً لهذا المبدأ؛ وها أنتم تشاهدون هذا الأمر في برامج عمل الأحزاب السياسية في بلدان العالم.

أمير المؤمنين يرفض قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة"

جاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطرح عليه نفس هذا الأمر قائلاً: لماذا تواجه معاوية؟ فحكومتك ما زالت يافعة، فاصبر عليه حتى يمضي بعض الوقت وتتوطّد أركان حكومتك، ويفعل الناس كحراك، كما سيعرفك أهل البلدان - بما فيها الشام - كحراك؛ فعليك ثبيت معاوية في مكانه، وتقول له: إنك ستبقى في هذا المنصب ولن يمسك منا أيّ سوء، وحينئذٍ فسيكون مجبوراً على الثناء عليك من على المنبر أيام الجمعة أو غير الجمعة (فهو كان يصلّي بالناس صلاة الجمعة في يوم الأربعاء؛ لقد كان يفعل ما يحلو له !!).

لقد ذهب رجل إلى مكان ما وكان لديه جمل، فجاء شخص وقال: إنَّ هذه ناقتي كنتُ قد فقدتها وها هي لدى هذا الرجل.

و كلَّما كان صاحب الجمل يقول: إنَّه جمل.

كان ذلك الشخص يقول: لا، إنَّها ناقتي ...

فقال: ما كان بغيرك؟

قال: إنَّها كانت ناقة.

قال: فهذا جمل!

قال: هكذا كان لونها، فلا حاجة لي بكونها ناقة أو جمل! كان لونها نفس لون جملك، فهو يعود لي!

فانتهى الأمر إلى معاوية؛ فقال له معاوية: أعطه الجمل، وسأعطيك ثمنه، بل وأكثر منه إن شئت. دعك عن ذلك لكي تخدم تلك الغائلة، ولا تسبب فتنة.

خلاصة الأمر أنَّ معاوية قال لذلك الشخص: خذ الثمن وأعده الجمل ...

قال الرجل لمعاوية: إنَّه يقول بأنَّ بيته الذي فقده كان ناقَةً، وهذا جملُ ...

قال معاوية: أجل، أبلغ علياً بأنِّي سأقابلها بمائة ألف ما فيهم من يُفرَق بين الناقة والجمل!

فلتعرف بأيِّ طيف من الناس سأقدم لقتالك، سأقاتلك بمن لا يُفرَق بين الناقة والجمل!

هل التفتُّم؟ هكذا هم أهل السياسة.

لقد قال المغيرة لأمير المؤمنين: دعك من معاویة هذه الأيام، حتّى إذا ما استحکم أمر حکومتك ، [فعلت معه ما شئت] ... ولو كنّا مكانه لقلنا إنّه رأي حسن، فالحكومة في أوائل أيامها لم يستحکم أمرها بعد، والخصم المتربّص في الطرف المقابل هو معاویة، والذي هو أكبر مكّار ومحتال في العالم؛ إذ ينبغي أن يحسب الشخص للأمور حسابها.

قال أمير المؤمنين: ما دامت الحكومة بيدي، و ما دمت حاكماً للبلاد الإسلامية وخليفة للمسلمين، فإني لا أستطيع أن أرى هكذا شخص يحكم على جمٍّ من المسلمين بالنيابة عنِّي ولو ليوم واحد. لا أستطيع أن أرى وأتحمّل هكذا أمر.

إنّ هذا الاقتراح هو بعينه مفهوم العبارة "الغاية تُبرّر الوسيلة"؛ فأنت تُريد أن تضمّ الشام إلى حكومتك، إذاً فلا بدّ من الإبقاء على معاویة في مكانه من أجل تحقيق هذا الهدف؛ فإن كان معاویة شارباً للخمر، فليشربها؛ وإن كان زانياً، فليزني؛ وإن كان متعدّياً على أموال وأرواح وأعراض الناس، فليفعل؛ فكل ذلك مما لا ضير فيه، لأنّه واقع ضمن إطار ذلك البرنامج الموصى إلى الهدف المقدس والمبارك وهو الحكومة والخلافة الإسلامية. لقد كان ذلك هو المبدأ الذي استند إليه المغيرة في استدلاله كما هو واضح.

لو كنّا مكانه لقلنا: إنّ كلام المغيرة كان صحيحاً، بينما نرى أمير المؤمنين يقول للمغيرة: لا مكان للتبرير في منهجنا، لا مكان لـ "الغاية تُبرّر الوسيلة" في مراعتنا؛ وذلك بأن نعتبر كلّ ما من شأنه الإبقاء على النظام الإسلامي صحيحاً، وإن كان ذلك الأمر عملاً محراً.

ولو أردنا القيام بذلك، فما هو الفرق بيننا وبين سائر السياسيّين في العالم إذاً؟ فهم يعملون وفقاً لهذا المرام أيضاً. فالبريطانيون، والفرنسيون يعملون وفقاً لذلك؛ بل ما من دولة يمكنكم ذكر اسمها إلاّ وهي تنتهج هذا النهج. فهم يقولون: بأنّ كلّ ما يمكن توظيفه في خدمة نظامنا، فهو أمر مقبول؛ وكلّ ما يقف بوجه هذا النظام ويمكن أن يُحِدَّث خللاً فيه، فهو مرفوض، ولو كان ذلك الأمر من الأمور الواجبة، بل ولو كان ذلك هو حكم الله ورسوله!

أتذكّر بأنّه في بداية الثورة، كانت هنالك صحيفة تصدر في إيران -و لا أعلم فيما إذا كانت لا تزال تصدر إلى الآن أم لا - و كان رئيس تحريرها الذي لن أذكر اسمه لأنّه لا يزال على قيد الحياة و لا ضرورة لذكر اسمه، كان من هؤلاء المتصدّين في الوقت الحاضر للمطالبة بإقامة العدل، فهؤلاء المدعون كانت سيرتهم بهذا الشكل و ما تزال.

كان رئيس التحرير هذا في ذلك الوقت من الأشخاص المشهورين جداً لدى الناس ولدى المؤيّدين، وقد نشرت هذه الصحيفة في أحد الأيام مقالاً تَّهمَ فيه شخصاً معيناً باتهاماتٍ ظالمة - وقد طالعت هذا الموضوع بنفسي - و كان هذا الشخص المعتم شخساً محترماً، كنت قد التقيت به. إنّه من أهالي إصفهان ، و كنت قد التقيت به في أحد أسفاري.

لقد اتُّهم ذلك الشخص بتهمة كاذبة؛ فذهب أحد أقاربي في ذلك الوقت إلى رئيس تحرير تلك الصحيفة وقال له: بأي دليل وعلى أي أساس قمتم بتوجيه هكذا اتهام لهذا الشخص؟! فهو رجل يحظى بالاحترام في مدحاته، وأنتم بعملكم هذا تكونون قد شوهتم سمعته؟ وهذه التهمة هي تهمة كاذبة، فلماذا لم تتحققوا في هذا الأمر قبل نشره؟!

فقال: لا، ليس الأمر كما تقول، فمراسلونا وأولئك الذين يقومون بإجراء التحقيقات لدينا هم أناس لا يخطئون.

قال: كيف لا يخطئون؟! فنحن نعرف هذا الشخص ...

فتقرَّر أن يقوم شخصان بالتحقيق في هذا الموضوع، فذهب الثلاثة - الشخصان المكلَّفان بالتحقيق إضافةً إلى هذا الشخص - إلى تلك المدينة وأخذوا بالاستفسار والتحرّي عن الموضوع من أهل المدينة، فتبينَ لهم عدم صحة الموضوع وأنَّ التهمة كانت كاذبة، فالشخص المتهم لم يرتكب هكذا عمل. فرجع هذان الشخصان وأخبرا رئيس التحرير بأنَّ تلك القضية التي تم نشرها كانت قضية كاذبة.

فقال: حسناً، لقد اتَّضح لنا الأمر، ولكنَّا سوف لن نتراجع عن الموضوع، لأنَّ تكذينا للموضوع سيلحق الضرر بصحيفتنا، سيؤدي ذلك إلى التشكيك في سمعة الصحيفة ومصداقيتها واحترامها!!

هل تلاحظون أيها الرفقاء، فالله لا يفعل شيئاً بدون أن يكون لذلك ما يُوجبه، إنَّ كلَّ ما يحصل في هذا العالم فهو مبنيٌ على أساسٍ رصين؛ إذ كيف يمكن أن يكون تشویه سمعة إنسان مؤمن، من الأمور التي لا ضير فيها؟ أمّا تدارك الخطأ وإصلاحه والاعتراف بكون تلك التهمة كانت كاذبة، واصلاح سمعة ذلك المؤمن [تعتبر أمراً خاطئاً لا يمكن احتماله حفاظاً على سمعة الصحيفة]!! علينا أن نكون حذرين لأنَّه من الممكن أن تحصل استجابة لتأوه المظلوم في لحظة! فليس الأمر متروكاً بهذا الشكل، وليس لنا أن نفعل ما نشاء، ثم نمضي هكذا وبكل سهولة، ونقول: آه! لقد أخطأنا، ولكن الأمر بسيط، فما الذي جرى؟! كلَّ ما حصل أننا قد ذكرنا أمراً، وتشوَّهت سمعة أحد الأشخاص و...، إنَّ لدينا ما هو أهم من ذلك؛ فهذه الصحيفة

عائدة إلى حزب مهم، حزب له علاقة بالثورة؛ فإذا ما اعترفنا بأنَّ هذه الصحيفة قد أخطأت، فإنَّ سمعة الصحيفة ستتشوَّه.

والحال أنَّ سمعتها في الحقيقة لن تشوه! بل هم يظلون ذلك، والحقُّ هو على العكس من ذلك، إذ إنَّ ذلك سيؤدي إلى ازدياد احترام الناس وثقتهم بتلك الصحيفة؛ سيقول الناس: لقد أخطأوا في أميرٍ ما، وها هم يتداركون خطأهم، فكم هو منهج لطيف! كم هي ثقافة عالية! كم هي أخلاقٌ جيدة!

ولكنَّهم - لأنَّ الله قد سلب عقولهم وإدراكيهم - فهم يرون الأمور على عكس حقيقتها.

- يقال له: إنَّ سمعة رجل مؤمن قد تشوَّهت؟

- فيجيب: إنَّه ليس بالأمر المهم! دعك من الأمر، فإنَّ كانت قد تشوَّهت فلتتشوَّه؛ فالملهم هو مكانة الصحيفة ومكانة الحزب، فالحزب سيتعرَّض للخطر! سيُقال بأنَّه نشر خبراً كاذباً...

إنَّ الله سيحفظ له هذا التصرِّف عنده سنة أو سنتين حتَّى يحين الموعد المناسب فيقدِّمه له كوجبة شهية تحفظ في الثلاجة ثم تقدم حينما يحين موعدها !

ولقد رأينا جميعاً ذلك بأمَّ أعيننا من خلال تجاربنا في الحياة، أليس كذلك؟ كما قلت: إنَّ ما يجري في هذا العالم ليس من الصدفة في شيء؛ فذلك الشخص الذي يتظلم الآن، ويطالِب بإقامة العدالة في الوقت الحاضر، ويدعُي أن حقوقه قد ضُيِّعت: كيف كانت سابقته؟ هل كان مثل سليمان الفارسي والمقداد وأبا ذر؟! كلاً، بل هذا هو الذي قال: لا يجب أن تشوه سمعة صحفتنا ومكانتها! وإنْ كلف ذلك أنَّ سمعة شخص مؤمن قد تشوَّهت، فلتتشوَّه، ليس في ذلك ضير! كيف يمكن أن ينسجم هذا الأمر مع نهج أمير المؤمنين؟! كيف ينسجم هذا مع نهج الحكومة الإسلامية؟ فنحن ندعُي إقامة حكومة إسلامية، وندعُي اتباع منهج أهل البيت عليهم السلام؛ فكيف يمكن أن يكون ذلك؟!

قال أمير المؤمنين للمغيرة: أنا لا أفعل ذلك، لا يصدر من مثلي أمر كهذا.

فجاء المغيرة في الغد وقال: يا علي، لقد تفكّرت فيها قلتة لي بالأمس، فرأيت بأنَّ الحقَّ كان معك.

فقال أمير المؤمنين: إنَّك تكذب، بالأمس كنت صادقاً، أمّا اليوم فأنت تكذب؛ وذلك لأنَّما تقول ما تقوله اليوم من باب التملُّق والمحاباة، أما كلامك بالأمس فقد كان عن إخلاص، فأنت لم تقبل رأيي بالأمس، ولكنَّك لمّا علمت عزمي على هذا الأمر، جئني اليوم لتقول بأنَّ الحقَّ معك. أمّا كلامك بالأمس فرغم أنَّه رأي باطل، إلا إنَّ قصدك فيه كان التقرُّب والإخلاص.

منهج أمير المؤمنين: الغاية الطاهرة لا تتحقق إلا بوسيلة طاهرة

هكذا هو مرام أمير المؤمنين وأئمتنا: الهدف لا يمكن أن يُبرر الوسيلة؛ فتلك المقدمة التي نفعلها بهدف الوصول إلى الغاية وذى المقدمة، يجب أن تكون مقدمة خالصة صافية، فالعمل الملوث لا يمكن أن يوصل الإنسان إلى النتيجة الخالصة.. الأمر الملوث لا يمكن أن يوصل الإنسان إلى النورانية؛ لأنَّ الكدوره لا تتجانس مع النورانية، وهذا أمر ثابت لا يتغيّر سواءً وقع هنا أو هناك.

لقد كنت قد قلت للرفقاء: بأنَّه عندما يرتكب الإنسان ذنباً، فإنَّ التأثير السلبي لذلك الذنب ينعكس على نفس الإنسان أولاً، قبل ظهور آثاره في الخارج.

فإذا كان الأمر بهذا الشكل وهو إنَّنا نؤمن بأنَّ جميع الأمور هي بيد الله، فلماذا هذا نقلق من أنَّه هل سيُوصلنا عملنا هذا إلى النتيجة المرجوة أم لا؟ إذ لعل الله لا يريد تحقّق هذا الأمر؛ فمن قال: إنَّ تحقّقه واجب وحتميٌّ؟!

لقد خاض أمير المؤمنين ثلاثة حروب في فترة توليه الحكم : الحرب الأولى كانت حرب الجمل، والثانية صفين، والثالثة النهروان. وفي حرب الجمل قال أمير المؤمنين: سيكون الظفر لنا في هذه المعركة، كما قال ذلك بشأن معركة النهروان أيضاً، أمّا في حرب صفين، فلم يقل

شيئاً؛ قال: نذهب لمقاتلة معاوية الغاصب؛ ولكن هل قال: سنتصر في هذه الحرب؟ هل قال: سيُهزم معاوية؟ لم يقل أمير المؤمنين ذلك؛ كلّ ما كان قد قاله هو: علينا أن نتجهز ونذهب.

فذهب وتحمّل حرارة الشمس الحارقة والبرد الشديد لمدة ثمانية عشر شهراً، ثم عاد بدون أن يتحقق أية نتيجة ظاهريّة له وللإسلام، وانتهى الأمر لصالح معاوية؛ فلقد خدع عمرو بن العاص أبو موسى الأشعري الأحقّ؛ فرغم إصرار أمير المؤمنين بأنّه: لا ترسلوا هذا الشخص الأحق للتحكيم، بل أرسلوا مالك الأشتر أو ابن عباس، إلا أنّهم لم يصغوا لقوله وأصرّوا على إرسال أبي موسى الأشعري، فخدعه بن العاص وانتهى الأمر بالخسارة.

ما هو الهدف الحقيقي الذي كان أمير المؤمنين لتحقيقه؟

والسؤال المهم هنا هو: ما هو الهدف الذي كان يتغيّر أمير المؤمنين تحقيقه في حرب صفين، ولم يتمكّن من تحقيقه؟ ماذا كان؟ لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يتغيّر الإنسان تحقيق هدفه، ويكون ذلك الهدف هدفاً إلهياً، ثم يعجز عن تحقيقه.

نحن نتصوّر الآن بأنَّ هدف أمير المؤمنين من تجهيز الجيوش وإرسال الجند لمقاتلة معاوية، هو القضاء على معاوية وضمّ الشام إليه، واستقرار حكومته الإسلامية في بلاد الشام؛ هذا هو ما نتصوّره ونقوله؛ فإذا كان ذلك هو هدف أمير المؤمنين فعلاً، فأمير المؤمنين لم يستطع تحقيق هدفه، فلقد خسِرَ الحرب.

إذا كان ذلك هو هدف أمير المؤمنين من خوض تلك الحرب، فإنَّه قد فشل في تحقيق هدفه؛ لأنَّه عاد إلى ما كان عليه، ولم يتحقق له ذلك الهدف.
عليكم التمعّن فيها أريد أن أطرحه عليّكم هذه الليلة.

فإن كان الأمر على ما نراه، وهو أنَّ أمير المؤمنين كان يدعو الناس بهذا الشكل: **سأجدهُ في أن أطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس.**^١

^١ نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

(يقول الإمام سأبذل جهدي لتطهير الأرض من هذا الشخص الذي يظهر بمظاهر الإنسان، ولكنه في واقع الأمر شيطان مجسّم).

فهذا الشخص كان يُصلِّي، ويصوم، ويؤمِّن الجماعة وال الجمعة، ويرتقي المنبر وينخطب بالناس، ويحج، ولكنه شيطان. فهذا معنى الشخص المعكوس: إنَّه شيطان بصورة إنسان. إنَّ معاوية لعجبٍ حقاً، فهو مختلف عن الآخرين؛ إنَّه كان يشبه المأمون، فهذا الإثنان كانوا متشاربين.

هل يعد هارون والمأمون من مفاسد الإسلام بسبب إنجازاتهم؟

لقد قرأت لأحد هم مقالاً عجياً جداً، لقد تعجبت كثيراً منه؛ يقول فيه بأنَّ هارون والمأمون كانوا من الخلفاء الذين قدّموا خدمات جليلة للإسلام، فلقد كانوا قد أفسدوا العدل بين الناس، وقاموا بإنجاز أعمال كبيرة في رقعة الخلافة الإسلامية؛ على أنَّه كانت لهم خلافات مع بعض الأئمة. فمع تحقيقهم ورعايتهم للعدل، ومع تلك الإنجازات الجليلة والمفيدة للإسلام، فلا بدَّ من الفصل بين هذا الموضوع و موضوع معارضتهم للأئمة... بخٍ!! جعلت فداءً لعمتي على ما كتبت وعلى هذه الأباطيل والترهات! أتقول: لقد أفسى هارون والمأمون العدالة؟!

هل يعدُّ الإلقاء بإمامٍ معصومٍ لمدة ثمان سنواتٍ في السجن ضرباً من العدالة؟! هل يعدُّ استدعاء الإمام من المدينة إلى مرو ومن ثمَّ دس السم إليه وقتلته نوعاً من العدالة؟! فمخالفتهم للأئمة هذه لا تُعدُّ شيئاً مهماً؟! إذن تفضل وقل لي: أيْ أمرٍ يُعدُّ أمراً مهماً؟! فإن لم يكن يُعدُ كل ذلك أمراً مهماً، فما هو الأمر المهم؟! أخبرني: في عهد أيِّ من الخلفاء العباسيين قد شُرد ذريّة الأئمة في البيادي والقفاري وتُقتلوا؟ إنَّ تسعين بالمائة من شُرِّد وقتل من ذريّة الأئمة كان في عهد هارون والمأمون؛ لقد جرى مثل ذلك في عهد المتوكل وأمثاله أيضاً، إلا إنَّ تسعين بالمائة من شُرِّد وقتل منهم كان في عهد هذين الشخصين؛ فأيّة عدالة هذه؟! إنَّ الجنائية التي ارتكبها المأمون تُعدُّ أكبر من جنائية يزيد بعشرة مرات! فيزيد حمار ليس إلا... فهو شاب مهووس، مطيع

لشهوته، وذلك واضح من مظاهره وهيئته، إذ هل يُعد إنساناً ذلك الذي يلعب بالكلاب والقردة؟! إنَّه لم يستمع إلى نصيحة معاوية؛ فقد أوصاه بعدم التعرُّض للحسين بن علي مهما فعل، ومع ذلك لم يسمع كلامه وارتكب واقعة كربلاء.

أمَّا المأمون، فلقد كان خبيثاً، سياسياً، وكان متعلِّماً إلى حدٍ ما، وله معرفة بالأمور؛ وكان أدهى من يزيد بعشرة مرة بحيث إنَّه استطاع التصرُّف بالشكل الذي تمكَّن فيه من جلب الإمام، والتخلُّص منه بدهاء؛ ثم قام بعدها بالبكاء والحمداد على الإمام، ليذهب بعد ذلك إلى المدينة ويقوم بقمع واستئصال بنـي هاشم وكل من كان هناك من دون إثارة أيَّة ضجَّة، وبدون حصول أيِّ أمرٍ مثيرٍ! هذا هو ما فعله المأمون عن طريق اسلوبه السياسي والشيطاني والقاسي.

ثمْ يأتي هؤلاء السادة ليقولوا بأنَّ علينا أن نضع مخالفة هارون والمأمون مع الأئمة جانبًا، فذلك لا يهمُّنا كثيراً، علينا الاهتمام بما أقاموه من عدل، وعلينا أن نلاحظ إدارتهم الجيدة للبلاد وما شابه ذلك.

كم يكون الإنسان بعيداً عن الواقع وعملاً حصل في ذلك العصر حتَّى يتكلم بشيء كهذا؟!

إذاً ما كنت تريـد التكلـم عن موضوع كهـذا، فهـلاً ضربت مثلاً بعمر بن عبد العزيـز على الأـقل؛ فلقد كان مختلفاً عن الآخرين شيئاً ما، وقد تحدَّث في الجزء الثالث من كتاب أسرار الملكـوت عن مسألة عمر بن عبد العزيـز، وبينـا بعض الحقـائق بهذا الشأن.

فهـلاً تكلـمت عن عمر بن عبد العزيـز، لا أن تأتي لتضع يـدك على أسوء الخـلفاء؛ كـهارون الخـيـث الذي ارتكـب كل تلك الفـجـائـع؛ فـلقد ضرب أعنـاق ستـين عـلوـيـاً في لـيـلة واحـدة، وألقـى بـجـثـهم في الجـبـ!

فيـا من تـلـقي مـثـل هـذـه المـطـالـب: هل قـرـأت هـذـه المسـائـل في التـارـيخ وهـل كـنـت مـطـلـعاً على هـذـه الجـرـائم قـبـل أـن تـأـقـي و تـتـفـوـه بمـثـل هـذـا الكـلام؟! كان عـلـيـك مـطـالـعة شـيـء مـا جاء في التـارـيخ قـبـل التـصـدـيـ لـهـذا؛ فأـولـئـك القرـاء العـادـيـون الذين ليس لهم اـطـلـاع على هـذـه المـواـضـيع، سـوـف يـضـلـلـون عند قـرـاءـة هـذـا الذـي تـطـرـحـه.

إِنَّه لعجیب جدًا بِأَنْ يَأْتِي أَحَدُ عُلَمَاءِ الشِّیعَةِ لِيُطْرُحَ مُثْلُ هَذِهِ الْأَبْاطِيلِ وَهَذَا الْهَرَاءُ. فَعَمِرْ
بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزَ كَانَ مُخْتَلِفًا شَيْئًا مَا؛ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ غَصْبِهِ لِلْخِلَافَةِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ - بَعْدَ
مَا حَدَثَ مِنْ أَمْوَارٍ - فَقَالَ: إِنَّ الْخِلَافَةَ هِيَ مِنْ حَقِّ الْإِمَامِ السَّجَّادِ وَالْإِمَامِ الْبَاقِرِ؛ كَمَا أَنَّهُ قَدْ أَعَادَ
الكَثِيرَ مِنْ الْحُقُوقِ الْمُغَصُوبَةِ، كَـ"فَدْكَ" وَغَيْرِهَا، وَعِنْدَمَا ماتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزَ كَانَ النَّاسُ
تَبْكِيُّ عِنْدَ تَشْيِيعِهَا لِجَنَازَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ فِيهِ شَيْءٌ كَهَذَا لِيَزِيدَ وَالْمَأْمُونَ وَمَعَاوِيَةَ.
إِنَّ ذَلِكَ نَاجِمٌ عَنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ الْحَقِيقِيَّةِ بِالدِّينِ، فَنَحْنُ لَا نَرَى مِنَ الدِّينِ سُوَى هَذَا
الظَّاهِرِ. وَأَنَا أَقُولُ هُنَا: لَوْ كَتَّانَا نَعْرِفُ هَذَا الظَّاهِرَ فَقَطْ، فَذَلِكَ كَافِ لِكَيْ لَا نَطْرُحَ أَمْثَالَ هَذِهِ
الْمُطَالِبِ الْبَاطِلَةِ؛ فَلَا أَدْرِي مَا الَّذِي كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ لِكَيْ يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ كَهَذَا.

أُولَيَاءُ اللَّهِ لَهُمْ هُدُفُ ظَاهِرِيٍّ وَهُدُفُ حَقِيقِيٍّ وَاعْتِي

إِنَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُدْرِكَهُ مِنْ تَجْهِيزِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْجَيُوشِ هُوَ هَذَا الْأَمْرُ الظَّاهِرِيُّ، وَهُوَ
الْقَضَاءُ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَضَمِّ الشَّامِ إِلَى الْخِلَافَةِ؛ فَهَذَا هُوَ الَّذِي نَفَهَمَهُ وَنَلَمَسَهُ مِنْ تَصْرِيفَاتِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ وَخُطْبَتِهِ وَإِرْسَالِهِ لِلْكِتَبِ إِلَى هَذَا وَذَاكَ، ثُمَّ نَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَصُلِّ إِلَى
مِبْتَغَاهُ.

لَنَرَى الآنَ مَا الَّذِي يَجْرِي فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَلَقَدْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ تَصْوِرُنَا عَنِ
الْمَوْضِعِ. فَلَوْ أَتَيْنَا الآنَ لِنَسْأَلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَفِيَّةً وَنَقُولُ: يَا عَلَيِّ، أَخْبَرْنَا عَنِ ذَلِكَ الْهُدُفِ
الَّذِي تَبْتَغِيهِ أَنْتَ؟ وَتَعْدُكَ بِالْأَنْجُورَ بِهِ أَحَدًا [يَتَسَمُّ سَمَاحَةُ السَّيِّدِ مَازَحًا]، سَنَحْفَظُ هَذَا السَّرَّ؛
فَمَا نَسْمَعُهُ مِنْ خُطْبَكَ مِنْ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَمِنْ رَسَائِلِكَ الَّتِي تَبْعَثُ بِهَا هُوَ: عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ لِلْقَضَاءِ
عَلَى مَعَاوِيَةَ، ذَلِكَ الْغَاصِبُ، الظَّالِمُ، الْجَائِرُ، الْفَاسِقُ وَ... وَكُلُّ ذَلِكَ فِي مَحْلِهِ وَصَحِيحٌ؛ وَلَكَنَّا
نَرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُخْبِرَنَا سِرَّاً بِمَا يَدُورُ فِي قَلْبِكَ، بِذَلِكَ الْهُدُفِ الَّذِي لَا تُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا سُوَى سَلَمَانَ - عَلَى
أَنَّ سَلَمَانَ كَانَ قَدْ انتَقَلَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ فِي الْمَدَائِنِ فِي عَهْدِ عُمَرَ - ذَلِكَ الْهُدُفُ الَّذِي لَا تُخْبِرَ بِهِ سُوَى
خَواصِّ أَصْحَابِكَ، وَالَّذِي تَكْتُمُهُ حَتَّى عَنْ مَالِكِ الْأَشْتَرِ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِعُ تَحْمِلَهُ (فَمَالِكُ الْأَشْتَرُ
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَرْبِهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَكَانِتِهِ وَالَّتِي نَرْجُو فِيهَا شَفَاعَتَهُ، عَلَى

الرغم من كل ذلك، فهو لا يستطيع تحمل ذلك الأمر! ذلك الهدف الذي تحفظه في قلبك وتحفظ به لنفسك أكبر من ذلك بكثير؛ نريد منك أن تخبرنا به سرًا، قل لنا ما هو؟ لو أننا كنّا قد قلنا ذلك لأمير المؤمنين، لقال لنا: إن هدفي وغايتي هي العمل بموجب تكليفني، لا التغلب على معاوية. فالأمران مختلفان: العمل بموجب التكليف شيء، والقضاء على معاوية شيء آخر. وأنا أسر لكم هذا الأمر وهو إنّا سوف لن ننتصر على معاوية؛ لقد قلت لكم ذلك حقيقة، فلا تُفشووا هذا السر، وإلا فسينفض من حولي العسكر! سيقولون: فعلام نذهب للقتال إذا؟ فإذا كان المقرر إنّا سوف لن ننتصر عليهم، فلماذا نذهب لقتالهم؟ فلماذا فراق الأهل هذا، ولماذا هذا المسير وتجهيز الخيول وحدّ السيوف و...

إنّه لأمر عجيب حقاً!

يقول أمير المؤمنين: لا تُفشووا ذلك، فهذا سرٌ ولغزٌ، هذا هو لغز و سرٌ مسيري، وحلوته في هذا! وسترون بأنّي سوف لن أختلف بمقدار أنمّة عن هذا النهج وهذا الاعتقاد في سيري نحو تحقيق ذلك الهدف.. إنّي سوف لن انحرف أو أزيغ يميناً أو شماليًّاً؛ ولن يدفعني علمي بما ستؤول إليه الأمور إلى التساهل والتهاون في اداء تكليفي، بل سأنجز عملي بأحسن صورة، وسأؤدي تكليفي كاملاً وسأقوم بتنظيم الميمنة والميسرة والقلب بكل دقة، وسأحسب لدقائق الأمور حسابها وفقاً للخطّة التي يمكن أن يضعها قائد جيشٍ يريد أن يكسب معركته؛ وسوف لن يكون عملي بالشكل الذي لا أبدل فيه قصارى جهدي بسبب علمي بأنّا سوف لن نكسب المعركة التي نخوضها.

بينما لو كنّا نحن مكانه لقلنا: دع الأمر إذاً، فلو كان الله قد أزاح ذلك الستار عنّا، وأعلمنا بما سيؤول إليه الأمر، أما كان سيحصل لدينا تهاون في القتال؟! بل، سوف يحصل لنا التهاون قطعاً؛ في أفضل الحالات سيحصل لنا تهاون بنسبة ثلاثة في المائة على الأقل.. يعني إذا كنّا جادين بما فيه الكفاية فإنّا سنجز أعمالنا وستنظم أمورنا وفقاً للمعتاد بنسبة السبعين بالمائة، وستتهاون وسوف لن نعطي للموضوع أهميته بنسبة الثلاثين بالمائة.

عمل أولياء الله لا يتغير حتى لو علموا أن الهدف الظاهري لن يتحقق

أما أمير المؤمنين فسينجز عمله بنسبة مائة بالمائة وكأنه لا يعلم شيئاً عن واقع الأمر وعمّا هو موجود خلف الستار، بل سيتعامل وكأنه ينظر للأمور كما نظر إليها نحن، وكأن له نفس الشعور والإدراك الذي عندنا؛ فما الذي سنفعله نحن إذا ما أردنا التغلب على عدوّنا؟ سنقوم بإعداد خطة محكمة، سنفعل كذا، سوف لن ننام حتى الصباح، ارصد هذا وذاك، انشر هذا الخبر بالشكل الغلاني...

نحن نفعل كل ذلك لغرض التغلب على الخصم؛ كل ذلك من أجل الثبات على الوعد الذي وعدناه ولن لا يظهر أننا لم نتمكن من الحفاظ على كلمتنا.. لكي لا يقول الناس بعد ذلك: لماذا أصبح الأمر بهذا الشكل؟ لماذا لم يتحقق ما وعدنا به؟ فنحن خوفاً من عدم تحقق ما كنّا قد وعدنا الناس به، ولكي لا يقال: لماذا انتهى الأمر بهذا الشكل؟ ولأجل الحفاظ على مكانتنا.. لأجل ذلك، نحن مستعدون أن ننزل السماء على الأرض، ونبذل كلّ ما يمكن بذلك، ولكننا نفعل ذلك للحفاظ على كلمتنا وصيانتها موقعيتنا في أعين الناس! ها! لقد صار هاهنا هدفان اثنان!

لقد أمسى في بين هدفان اثنان؛ فتارة يكون غرضنا و هدفنا هو السعي لتحقيق الوعد الذي قطعناه للناس، والحفاظ على كلمتنا التي أعطيناها، وتارة يكون الهدف هو تحقيق أمر ذاك [يشير سماحته بيده إلى أعلى كنایة عن الله سبحانه] و جعل كلمته هو العليا، كلمة ذاك الذي هو موجود في الأعلى. [يبيّن سماحته ويقول:] و من الواضح أن المقصود بالعلو هنا هو العلو الطولي والمعنوي، لا العلو الظاهري المادي.

حسناً، أي الهدفين نحن نسعى لتحقيقه؟ الأول أم الثاني؟ ما دام للإنسان نفس، وما دام الإنسان متعلقاً بالدنيا، وما دام الإنسان لم يهذب نفسه بعد، ولم يُزكي نفسه بعد؛ فهو يسعى نحو تحقيق الهدف الأول، وإن كان يدعى بأنه رجل إلهي يعمل بموجب التكليف! فكل ذلك مما لا قيمة له وكذبٌ يتضح أمره بمجرد أن تتذبذب الأمور صعوداً ونزولاً. فما دام الإنسان غير

متحرّر من قيود النفس، فإنَّ الهدف الثاني والموجود في قلب أمير المؤمنين، لا يمكن أن يتحقّق في قلبه أبداً أبداً.

لكي يتحقق هذا الهدف في قلبه، يجب عليه التحرّر من قيود النفس وتعلّقاتها، ويجب أن تضمحل وتتحمّي هذه النفس من الوجود؛ على أنَّ ذلك ليس بالأمر اليسيء، فذلك ليس من قبيل الوجبات السريعة، بل إنَّ ذلك لا يُنال إلَّا بشق الأنفس، أتتصوّرون بأنَّ الأمر يكون بهذه السهولة، وأنَّ الأمر ينتهي بأنْ يُقال: إنَّ فلاناً قد عبر مرحلة النفس، أو إنَّه يُقيّم صلاة الليل وكان يُدرّس الدروس الأخلاقية؟! كلاً، ليس الأمر بالكلام والادعاء؛ وإنَّ فانا كنت أُدرّس الدروس الأخلاقية، وهأنذا أُدرّسها الآن. فهل ذلك ينفعني؟! وهل يتمُّ الأمر به؟ تستطعون أنتم كذلك أن تضعوا شريطاً مسجلاً، فيبدأ بالدوران ويعطي بذلك درساً أخلاقياً، وإن شئتم فضعوا عمامه عليه! سيعطّيكم درساً أخلاقياً راقياً وبلغياً ستتهجّون بأجمعكم لسماعه! فهذا ليس هو المطلوب؛ إنَّ أهم ما في الموضوع هو: ما الذي يجري في القلب؟

ليست الإن prezations الظاهريّة هي المهمّة، بل المهمّ ما ينطوي عليه قلب الإنسان!

لقد كان لأمير المؤمنين نشاطاً وفعالية في جميع أوقات الحرب؛ ففي ليلة الهريير، تلك الليلة العجيبة، كان يخوض القتال وكان يُرسل الحسين و محمد بن الحنفية فيعودون مخطّبين بالدماء وقد أصابتهم الجراح، لقد كان الدم ينزف من كافة أعضاء بدن محمد بن الحنفية. فرغم أنَّ أمير المؤمنين كان يرى بعينيه النهاية الخاسرة لهذه الحرب، إلاَّ إنه لم يكن ليخبر بذلك أحداً غير الخواصّ من أصحابه ممّن له القدرة على تحمل الموضوع، وهم بدورهم لا يُخّبرون أحداً سوى أمثالهم ممّن لا يوح بالسرّ، فتراهم يقفون باستقامةٍ و ثبات، ويتصرّفون بشكلٍ طبيعي، ولكنَّهم يضحكون على الآخرين بقلوبهم، ويقولون ستَّتضح النتيجة في نهاية المطاف!

فلو نظرت إليهم في الظاهر، فستجدّهم هادئين ثابتين، يقولون: أجل، لنذهب للقتال، لنحمل البنادق، والسيوف، والمدافع، والصوراريخ، وما شاكل ذلك، ولكن ما الذي يجري في

داخل نفسم؟ لا ينطر بنا لهم سوى العمل وفقاً للتکلیف الإلهيّ. ما الذي يعني هذا؟ هذا يعني أنّ هذا هو هدفهم ومقصدهم، وهذا الهدف قد تمّ تحقيقه!

إن كان الهدف إلهياً، فإن العواقب لا تقف أمامه

ألم يتمكّن أمير المؤمنين من تحقيق هدفه؟ بلـ، لقد تمكّن من تحقيقه وبأفضل وجه. إنّ تحقيقه لهذا كان بالشكل الذي جعل الجميع يضعون أيديهم على أفواههم من التعجب؛ كتصرّفه في قضيّة فتح شريعة الماء أمام أهل الشام بعد غلقها من قبل معاوية، أو امتناعه عن قتل عمرو بن العاص، أو منحه لتلك الفرص للخصم لكي لا ينهزم، وما شاكل ذلك من دقائق الأمور؛ لماذا؟ لأنّه يريد الوصول إلى هدفه، ولا بدّ من اختيار هذا الطريق للوصول إليه. فما هو هذا الهدف؟ إنّه الهزيمة الظاهريّة! فأمير المؤمنين قد تمكّن من تحقيق هدفه.

لو كان أمير المؤمنين قد انتصر في هذه الحرب، لما كان قد حقّق هدفه؛ فهدفه هو الهزيمة الظاهريّة، وفي هذه الهزيمة الظاهريّة يجب أن يُصاب بالسهم والسيف وينزف الدّم، ويتحمل الحرّ والبرد، وعليه أن يخاطب القوم ويحرّضهم على القتال.

ولكن وبما إنّه إمام وبما إنّه واسطة لتنزيل المشيئة الإلهيّة من عالم التقدير إلى عالم التنزيل وعالم الشهادة، فهو يعرف كيف يقدّر الأمور: فهو يكون مُتشدّداً تارةً، ومتسامحاً أخرى؛ يُقاتل في بعض المواطن، ويترك القتال في أخرى؛ يعفو أحياناً ويعاقب في أحياناً أخرى. كلّ ذلك التدبير وتقدير الأمور يكون في إطار تحقيق المشيئة الإلهيّة والمتمثلة في الهزيمة الظاهريّة في هذه الحرب. فالمشيئة الإلهيّة تقتضي عدم وقوع الشام في قبضة أمير المؤمنين. فما دامت تلك هي المشيئة الإلهيّة، فكيف يمكن تقديرها؟ وكيف يمكن ترتيب الأمور من أجل تحقيقها؟ إنّه يعلم بأنّ ذلك هو التقدير الإلهيّ، وأنّه يجب السير بموجبه. و حينئذٍ فإذا ما جئت واتّبعت عليّاً في حركاته وسكناته وأطعت أوامره: إن قال لك تحرك، تتحرك ولا تُهمّهم وتندمر دائمًا في هذا المسير وتقول: ما الذي يحصل يا علي؟ فها هو شهر قد مضى، وأهلنا قد اشتاقوا إلينا!

[يَسْتَسِم سَهَّاحُ السَّيْدِ وَيَقُولُ مَازَحًا:] يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: لَيْسَ أَهْلَكَ هُمُ الَّذِينَ اشْتَاقُوا إِلَيْكُ، لَعِلَّهُ أَمْرٌ آخَرُ... الظَّاهِرُ أَنَّكَ مِنْ اشْتَاقِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنَّكَ تَتَحَجَّجُ بِهِمْ.

فِي جِبَهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: إِذَا كُنْتَ لَا تُرِيدُ مُوَاصِلَةَ الْقَتَالِ، فَارْجِعْ، فَهَدْفُنَا هُوَ الْذَّهَابُ لِإِزَاحَةِ مَعَاوِيَةَ، هَذَا هُوَ وَاجْبُنَا. ثُمَّ يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ وَيُشَدَّدُ مِنْ عَزَّمِهِمْ، يُطْمِئِنُهُمْ، يُشَجِّعُهُمْ؛ فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَجْلِسُ فِي مَحْلِهِ وَيُعْطِيُ الْأَوْامِرَ مُثْلَنَا؛ اذْهَبُوهُ، لَتُقْتَلُوهُ، مَا دَامَ مَكَانِي الَّذِي أَنَا فِيهِ دَافِئٌ، وَسَرِيرِي مَرِيحٌ. كَلَّا، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَتَقَدَّمُ الْجَيْشَ بِنَفْسِهِ، وَيُصْبِيَهُ أَلْفَ سَهْمٍ وَرَمْحٍ. فَإِذَا كَانَ الدَّمُ عَبَارَةً عَنْ كَرِيَاتٍ حَمَراءً وَبِيَضَاءِ وَبِلَازْمَ، فَدُمُّ عَلَيْهِ كَانَ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ أَيْضًا، وَلَمْ يَكُنْ يَحْتَوِي عَلَى عَنَاصِرٍ إِضَافِيَّةٍ؛ فَدَمُهُ مُثْلِدُ دَمَائِنَا، وَدَمَائِنَا مُثْلِدُ دَمِهِ. فَلَا أَعْلَمُ مَا الَّذِي جَرِيَ الْآنُ: هَلْ تَغْيِيرُ تَرْكِيبِ الدَّمِ أَمْ لَا؟! غَيْرَ إِنَّهُ لَا يَبْدُو وَجُودَ أَيِّ تَفاوتٍ فِي طَبِيعَةِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الزَّمْنِ الْمَاضِيِّ وَمَنْ يَعِيشُ فِي زَمَانِنَا هَذَا.

لَقَدْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَقَدَّمُ أَمَامَ الْعُسْكُرِ؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ وَالَّذِي كَانَ هُوَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ الْوَحِيدِ، يَكُونُ أَقْرَبُ الْجَمِيعِ مِنَ الْعُدُوِّ. فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ فِي نَبْحِ الْبَلَاغَةِ:

فَلَمْ يَكُنْ مَنَا أَقْرَبُ إِلَى الْعُدُوِّ مِنْهُ¹.

فَجَبِينَ مَنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَجْرَ قَدْ شَجَّ فِي مَعرِكَةِ أُحْدٍ؟ وَجَسْمَ مَنْ كَانَ قَدْ جُرِحَ؟ أَلِيَسْ جَسْمُ النَّبِيِّ؟! فَلِمَذَا لَمْ يَبْقِي النَّبِيُّ فِي الْمَدِينَةِ؟! لِمَذَا لَمْ يَقُلْ: "اذْهَبُوهُ وَقَاتِلُوهُ، وَاجْلِبُوهُ إِلَيْ بَشَارَةِ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَأَطْلُبُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ التَّوْفِيقَ"؟!

كَلَّا، بَلْ كَانَ يَقْفِي فِي الْمَقْدَمَةِ، لِمَذَا؟ لِأَنَّهُ عَلَى النَّبِيِّ أَنْ يُتَابِعَ هَذَا الْهَدْفُ أَيْضًا وَيَسْعَى لِتَحْقِيقِهِ، وَإِلَّا لَمَا كَانَ نَبِيًّا، لَمَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءَ. فَكَمَا أَنَّ مَنْ وَاجَبَ كَافَّةَ جُنُودِ الْإِسْلَامِ السَّعِيُّ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدْفِ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى النَّبِيِّ أَيْضًا.

لَا يَنْبَغِي لَكَ الْجَلوسُ فِي الْبَيْتِ، فَأَنْتَ وَاحِدُهُمْ. كَيْفَ كَانَ مَشِيَّةُ اللَّهِ فَلَتَكُنْ، فَالْأَمْرُ غَيْرُ عَائِدٍ لَكَ. يَقُولُ اللَّهُ: تَلَكَ هِيَ مَشِيَّتِي، وَعَلَيْكَ أَنْ تُنَفَّذَ تَقْدِيرِي. لَيْسَ لَكَ الْبَقَاءُ فِي الْخَلْفِ،

¹ نَبْحِ الْبَلَاغَةِ، فَصَلِّ فِي بِيَانِ كَلِمَاتِ غَرِيبِهِ (الْحَدِيثُ ٩ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْقَصَارِ) كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ مَنَا أَقْرَبُ إِلَى الْعُدُوِّ مِنْهُ.

ولماذا تبقى؟ فإذا كان الأمر يقتضي مقاتلة العدو، فأنت أحد المكلفين، فتقدّم بسم الله؛ ولعل رسول الله كان سيُستشهد في معركة أحد؛ فليُستشهد.

من الذي أوصل النبي إلى مقام النبوة، وجعله علمًا للإسلام؟ هل كان أحدًا غير الله؟ فإذا ما شاء الله أن يُستشهد النبي، فما الضير في ذلك؟ لم يُستشهد الإمام الحسين؟ فهل قُضي على الدين؟ هل انتهى كل شيء؟ كلاً، لا أنه لم يُقضَ على الدين فحسب، بل كانت شهادته عليه السلام سببًا لارتفاع شأن الدين! ولقد استُشهد كافة الأئمة عليهم السلام أيضًا: إما بواسطة السُّم، أو في ميدان القتال وبواسطة السيف وآلات الحرب الظاهريّة. فنبي الله قد استُشهد كذلك عندما دَسَّ له السُّم: **إِنَّمَا سَمَّتَاهُ**^١؛ أي أنَّ عائشة وحفصة هما اللتان سَمَّتا رسول الله كما جاء ذلك في الرواية المذكورة في بحار الأنوار عن الإمام الصادق عليه السلام.

فنهج رسول الله هو نفس نهج أمير المؤمنين، ونهج أمير المؤمنين هو كذلك. فإذا ما كان الأمر يستوجب التقدُّم إلى الأئمة، فليتقدّم الجميع، لأن يقول أحدهم: إنَّ لي واجبي ولك واجبك، لماذا؟ لأنَّه إذا ما كان التصدّي لأعداء الله واجب، فهو واجب على الجميع.

ما هو الفرق بين هدفنا ، و هدف أولياء الله ؟

حسناً، يجب علينا أن نتممّن في هذا الموضوع، وهو كيف أنَّ الهدف الذي نبتغيه مختلف عن ذلك الهدف الذي يسعى لتحقيقه أولياء الله، العرفاء بالله، أولئك العالمين بالمشيئة والتقدير الإلهيّ، أولئك الذين يقولون **سَلُوْنِي قَبْلَ أَنْ تَفْقَدُونِي**^٢؛ فأولئك على علم بالأمور، ولكنَّهم لا يتفوّهون بها؛ وهذا أمر آخر. لقد قلت للرفقاء مراراً بأنَّ أولئك الذين يعلمون زمان ظهور إمام الزمان، لا يتكلمون بهذا الموضوع؛ أمّا أولئك الذين ليس لهم علم بذلك فترون منهم في هذا المجال إلى ما شاء الله... فما الذي سيقوله إمام الزمان؟ لا يوجد في العالم من هو

^١ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥١٦؛ ج ٢٨، ص ٢١.

^٢ بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٢٦.

أكثُر مظلوميَّة من إمام الزمان. فلتقولوا مراراً: سيظهر إمام الزمان غداً، وسيظهر بعد غد،
فسيجيِّبكم عليه السلام: أنا لن أظهر في الوقت الذي عيَّنتموه، فقولوا ما شئتم!

لقد كنت في مكانٍ ما، فقال أحد عباد الله: بِإِنْيِي عَنْدِي كَمْ كُنْتُ فِي النَّجْفَ قَمْتُ بِعِصْمَتِ
الحسابات، فوجَدْتُ بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ فِي عَامِ ١٤٦١، ثُمَّ أَرْدَفْتُ قَائِلاً: أَنَا أَتَوَقَّعُ ذَلِكَ وَسَيَظْهُرُ
الْإِمَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ما هو العام الذي نحن فيه الآن؟! إِنَّهُ عَامٌ ١٤٣٤. كم مضى على ذلك التاريخ؟ لقد مضى
ثمانية عشر عاماً على ذلك ولم يحصل الظهور!

قلت له بعد ذلك: لقد كنت قد سمعت منك هذا الأمر.

فقال: كلا، إِنَّي لَمْ أَقْلِ ذَلِكَ.

يا للعجب! كم هو يسير عليك إنكار الأمر! فلقد سمعت ذلك بأذناي هاتين واللتان
ستشهدان يوم القيمة بسماعهما ذلك من لسانك المبارك، بِإِنْكَ قَلْتَ: إِنَّي كُنْتُ قَدْ حَسِبْتُ
زَمَانَ الظَّهُورِ وَسَيَكُونُ فِي الْعَامِ ١٤٦١. وَعِنْدِ تَجاوزِ هَذَا التَّارِيخِ تَقُولُ: لَمْ أَقْلِ ذَلِكَ، بَلْ قَلْتَ
بِأَنَّ زَمَانَ الظَّهُورِ قَرِيبٌ.

فقلت: جيد جداً، لقد عرفتك إذًا، فلا ذهب للبحث عن شخص آخر.

لذا لم نرَ المرحوم العلامَة أو المرحوم الحداد - رضوان الله عليهما - وهم من أولئك الذين
لهم علم بهذه الأمور يتحدث عن ذلك. إِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيُونَ أَنْ تَجِدُوا بِأَنَّ المرحوم العلامَة قد
حدَّدَ زماناً لظهور الإمام في أيٍّ من مؤلفاته، أين كان ذلك؟ دُلُونِي على ذلك، هل هناك موضع
واحد؟! في الوقت الذي نرى فيه الآخرين يخوضون في هذا المجال في أحاديثهم ومؤلفاتهم؛
على أيٍّ شيء يدلُّ هذا؟ إِنَّه دلالة على النقصان في الفهم والمعرفة؛ فلو كانت لهم معرفة تامة، لما
كانت هنالك حاجة لذكر زمان ظهور الإمام. فما هو الأمر الموجب لذلك؟

ولو فرضنا بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ غَدًا، فَمَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا فَعْلَهُ؟ فَهَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَنَّ لَدِيَ
خَبَرًا مُوثَّقًا بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ فِي صَبَّاحِ يَوْمِ غَدِ الثَّلَاثَاءِ عَنْدَ آذَانِ الصَّبَحِ فِي الْمَدِينَةِ الْفَلَانِيَّةِ،
فَمَا الَّذِي سَتَفْعَلُونَهُ؟ سَنَنْهَضُ إِلَيْهِ؟ جَيْدٌ جَدًّا، فَأَقْدَامُهُ عَلَى أَعْيُنِنَا وَعَلَى

رَوْوِسِنَا، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ تَابِعِيهِ وَمِنَ السَّامِعِينَ وَالْمُطَيَّعِينَ لَهُ، وَلَكُنَّ مَا الَّذِي سَنَفْعُلُهُ؟ سَوْفَ لَنْ نُضْرِبَ رَوْوِسِنَا بِالْجَدَارِ! أَوْ أَنْ نَعْمَلَ عَمَلاً خَارِقًا! فَلَوْ قِيلَ لَنَا بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ بَعْدَ سَنَةً، مَا الَّذِي سَنَفْعُلُهُ؟ سَنَعْمَلُ عَلَى إِصْلَاحِ أَنفُسِنَا، وَنَكُونُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ: سَنَضْبِطُ أَسْتِنَتِنَا، وَنَرَاقِبُ حَالَ تَرَدَّدِنَا، وَنَرَاقِبُ أَنفُسِنَا لَكِي لَا نَرْتَكِبُ مَعْصِيَةً، حَسْنًا، إِنَّ هَذَا هُوَ مَا يَرِيدُهُ الْإِمَامُ مَنَّا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، فَلَمَّا أَقُولُ بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ بَعْدَ سَنَةً أَوْ سَتِينَ، مَا الْمُبَرِّرُ لِذَلِكَ؟ لِمَاذَا؟ لِذَا فِيَانَ طَرَحَ هَكُذا أَمْوَارٌ تَكُونُ مُخَالِفَةً لِنَهْجِ الْإِمَامِ بِالْكَاملِ؛ فَلَوْ أَنَّكَ عَلِمْتَ وَتَيَقَّنْتَ بِأَنَّ الْإِمَامَ سَيَظْهُرُ بَعْدَ سَنَةٍ، وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْعِلْمِ قَمْتَ بِإِصْلَاحِ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَكُونَ قَدْ فَعَلْتَ الْكَثِيرَ، وَلَيْسَ هَذَا بِالْأَمْرِ الصَّعِبِ. الْكِيَاسَةُ تَتَمَثَّلُ فِي الْبَدْءِ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ بِدُونِ الْعِلْمِ بِزَمَانِ الظَّهُورِ، فَهَذَا أَمْرٌ لِهِ الْكَثِيرُ مِنَ التَّأْثِيرِ، أَمَّا الْحَالَةُ الْأُولَى فَلَيْسَ لَهَا ذَلِكُ التَّأْثِيرُ. بِالطبعِ فَإِنَّنِي لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولُ : إِنَّهُ عَمَلٌ سَيِّءٌ. لَا، بَلْ هُوَ عَمَلٌ جَيِّدٌ جَدًّا؛ وَلَكِنْ لَوْ أَعْطَيْنَا لِعَمْلِيَّةِ الْمِبَادِرَةِ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ مِنْ دُونِ الْعِلْمِ بِزَمَانِ الظَّهُورِ درَجَةَ الْمَاهَةِ، فَسَوْفَ لَنْ يُعْطَى لِلْحَالَةِ الْأُخْرَى سُوَى الْعَشْرَةِ أَوِ الْخَمْسَةِ عَشْرَ وَلَنْ تَصْلِي الْدَرْجَةُ إِلَى الْعَشْرِينَ. يَعْنِي سَيَكُونُ التَّأْثِيرُ الْكَبِيرُ لِتَلْكَ الْحَالَةِ، وَهِيَ أَنْ يَسْعِيَ الْإِنْسَانُ - مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِ بِزَمَانِ الظَّهُورِ - إِلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ، وَيَقْوِمُ بِتَزْكِيَّتِهَا، وَبِالسعيِّ لِلْوُصُولِ إِلَى تَجْرِيدِ النَّفْسِ؛ سَيَكُونُ التَّأْثِيرُ الْعَمِيقُ لِهَذِهِ الْحَالَةِ.

ما هو الهدف الحقيقي لخروج الإمام الحسين عليه السلام؟

فَبِنَاءً عَلَى هَذَا تَكُونُ الْعِبَارَةُ الْقَائِلَةُ بِأَنَّ "الْغَايَةَ تُبَرِّرُ الْوَسِيْلَةَ" عِبَارَةً خَاطِئَةً مِنَ الْأَسَاسِ؛ فَسَيِّدُ الشَّهَداءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَصَلَ إِلَى هُدْفَهُ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءِ، وَتَحَقَّقَتْ لَهُ تَلْكَ الْغَايَةُ الْمُدَخَّرَةُ لَهُ، أَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَرَاكَ قَتِيلًا"١، فَأَنَا سَاعِي لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدْفَ، فَلَيْسَ هَدْفِي هُوَ هَزِيمَةُ عَسَاكِرِ وَجُنُدِ بْنِ سَعْدٍ، بَلْ هَدْفِي هُوَ تَحْقِيقُ مَا أُمِرْتُ بِهِ وَهُوَ "إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَرَاكَ قَتِيلًا"، وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكُ.

¹ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٦٤؛ اللهوف، طبعة جهان، ص ٦٣.



وكذلك الحال بالنسبة للنساء والأطفال، "إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَرَاهُنَّ سَبَايَا"^١ وقد تحقق هدفهم أيضاً. فلقد وصلت زينب إلى ذلك الهدف، كما وصل إليه الإمام السجّاد وأمُّ علي الأكبر والرباب؛ فقد وصلوا إلى ذلك الهدف بأجمعهم؛ فما هو ذلك الهدف؟ هو أن يؤخذنوا سبايَا مقيدَين بالسلسل، يُطاف بهم في المُدن. لقد وصلوا بأجمعهم إلى هدفهم وإلى مقامهم وإلى تلك الغاية التي عاهدوا عليها الإمام الحسين عليه السلام، وخرجوا معه من أجلها؛ فالبعض منهم كان مُكْلِفًا بالقتال كالإمام الحسين عليه السلام، وأبي الفضل وإخوته وعلى الأكبر وال أصحاب؛ ولقد طوّوا هذا الطريق وانتهى الأمر. أمّا الآخرون فلم يكونوا مُكْلِفين بالقتال، بل كانوا مُكْلِفين بالسير، وقد طوّوا الطريق وأوصلوا النداء إلى أهالي المدن والقرى. فلقد كان التكليف على نحوين: تكليفُ للرجال، وتكليفُ للنساء والإمام السجّاد والآخرين الذين كانوا معهم، وهؤلاء قد وصلوا إلى هدفهم أيضاً.

نحن نرى بحسب الظاهر أنَّ حركة الإمام الحسين عليه السلام كانت بناءً على الرسائل التي جاءت من الكوفة، فقد أرسل أهل الكوفة أربعة آلاف رسالة: أنْ أُقْبِلَ يا حسين، وما شاكل ذلك. هذا بحسب ظاهر الأمر، أمّا الباطن: فهذا كان الباطن؟ يقول الإمام: لا عودة لهذه القافلة فهي سائرة والموت يحدوها، القوم يسيرون و المنيايا تسير بهم.

كان الإمام عليه السلام يُبَيِّنُ هذه الأمور في طيِّ أحداً بيته، كان يقول: لا تتوَقُّعوا بِأَنَّ طريقنا مفروش بالورود، فظاهر الأمر هو أَنَّنا سائرون لفتح الكوفة وإسقاط حكومة يزيد لعنه الله، ولكنَّ واقع الأمر هو أَنَّنا سنُسْتَشهدُ في أرض كربلاء؛ حتى إنَّه كان قد قال للقاسم رضوان الله عليه: وأنت سُتُّسْتَشهدُ أيضًا يا ابن أخي، ثم بكى وقال: "بَعْدَ أَنْ تُبْتَلَ بِبَلَاءَ عَظِيمٍ".^٢ وهو ذلك البلاء المتمثّل في لحظات احتضار القاسم وهو أمر له قصة... نعم، لقد أخبر القاسم بذلك ليلة عاشوراء.

^١ نفس المصادر

^٢ الواقع والحوادث، ج ٣، ص ٦٢.

ثم يقول الإمام عليه السلام: بل إنَّهم سوف لن يتوانوا عن قتل أبني الرضيع هذا - عبد الله الرضيع والذي نُسميه بعليٰ الأصغر - فسيُستشهد هو أيضاً.

هل تلاحظون كيف كان الإمام يُيَّن تفاصيل الأمور، فكان يقول: من يشاء، فليُعد؛ فتحن لا نقصد يزيداً أو ابن زياد أو السيطرة على الكوفة، نعم ذلك هو هدفنا في ظاهر الأمر؛ ولكننا نرمي ونسعى لتحقيق شيء آخر، ألا وهو لقاء الله وإمضاء صحيفة أعلمُنا؛ فنحن نسعى لإمساء هذه الصحيفة في يوم عاشوراء؛ فمن شاء أن تُمضى صحيفته فليبق معنا على الرحب والسعة. فقال بعضُ منهم: نحن نريد أن تُمضى صحيفتنا، فنحن معك أينما ذهبت.

قال زهير: لو قُتلتُ ألف مرة، لما تركتك! نعم، لقد كانوا صادقين بأجمعهم فيما قالوا، وكذلك قال مسلم بن عوسجة وعابس. فكان كل ما قالوه يقيناً محضاً، إيماناً محضاً، نيةً محضةً، خلوصاً محضاً، توحيداً محضاً، ولائيةً محضةً؛ فلقد وضعوا أقدامهم حيث وضع الإمام الحسين عليه السلام قدمه. لقد عرفوا ما هي الغاية وما هو الهدف.

فمنْ من هؤلاء الاثنين والسبعين كان قد جاء إلى كربلاء من أجل إسقاط يزيد؟! لقد كان ذلك هو هدف أولئك الذين جاؤوا مع الإمام الحسين ولكنَّهم غادروا في ليلة عاشوراء وتركوا الإمام عليه السلام، فلقد كان هدفهم هو القضاء على يزيد وابن زياد، ولِمَا رأوا بأنَّ ذلك الهدف سوف لن يتحقق فرّوا بأجمعهم، فقال الحسين: أطفئوا المصايبِ لكي لا يخجلوا. اذهبوا ودعونا نواصل عملنا، فنحن لا نستطيع ذلك مع وجودكم؛ فهناك قهامة كثيرة، ولا بدّ من التخلص منها، ولا بدّ من غربتها وفرز الجيد من الرديء؛ فمن كان يحب زوجته وأولاده ومتعلقاً بهم فليذهب إليهم، ومن كان حريصاً على الضياع والبساتين فليرجع إليها، ومن كان يحب الحفاظ على حياته فليذهب أيضاً، ليذهبوا ولا يخجلوا؛ ولقد ذهبوا بالفعل.

كم هو عجيب أمر هؤلاء الناس! يجب علينا أن نسأل الله بآلاً يتلينا بهكذا امتحانٍ في وقت من الأوقات، وإذا ما ابتلانا به، فنسأله أن يأخذ بأيدينا، ولا يجعلنا من أولئك الذين يغتنمون فرصة إطفاء المصايب، فيتعللون بهدوء ويغادرون. فتلك الثانية الأخيرة هي التي

تُعيّن السعادة الأبديّة أو الشقاء الأبديّ، نعم تلك الثانية أو الثانية، فذلك هو الموقف
الحسّاس والخرج ...

خدايا چنان کن سرانجام کار *** تو خشنود باشی و ما رستگار
(يقول: إلهي اجعل عاقبة أمرنا بالشكل الذي تكون فيه راضياً عنا، ونكون فيه من
المُفلحين.)

لقد كنتُ أنوي التحدّث في موضوع آخر، ولكنني جذبُت للحديث بهذا الاتجاه، على أنني
لست مُتردعاً من ذلك؛ فابقوا على انتظاركم أَيْهَا الرفقاء، ولիُضف هذا إلى ذلك البرنامج [و إلى]
قائمة الأمور التي وعدنا بالحديث عنها]...، لقد كنت أقول لأحد الأصدقاء هذه الليلة: لقد
كانت المواضيع التي تحدّث بها في جميع هذه الليالي تأتي على غير ما كنت مُصمّماً عليه، فمرحباً
بها إذاً.

فبأي اتجاه ينجرّ الحديث، فمرحباً به، فهو إن شاء الله يدور في إطار تلك الحقائق النورانية
والعرفانية، وهذا هو المطلوب؛ فالأمر المهم هو أن يعلم ويفهم الإنسان، أن يفتح فهمه،
ويُصَحّح إدراكه؛ وأن يكون النهج الذي ينتهجه نهجاً صحيحاً ومتقناً ومتواافقاً مع ما يرضاه
الله.

نسأل الله أن يفتح عقولنا، ويُعرّفنا بتکاليفنا ويرشدنا إليها، ويُعرّفنا حقيقة الأمر وأن
يوفّقنا لكي لا ننحرف ذات اليمين وذات الشمال عن ذلك الطريق الذي سلكه العظام
والأولياء؛ وألا يجعل مسيرنا ممزوجاً بتلك الأوهام والتخيلات وأن يبعدا عن القاذورات
الدنيوية، إن شاء الله.

اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمد